جوانب من الحرية في بلاد الرافدين

م.د. ياسر هاشم حسين علي
قسم الحضارة – كلية الآثار – جامعة الموصل

ملخص البحث

ركز البحث على دراسة جوانب من الحرية في بلاد الرافدين، إذ تبين لنا قدرة العراقيين القدماء على التعبير عن وجهة نظرهم بمختلف وسائل التعبير وعن آرائهم في سياسة حكامهم وملوكهم التي تعود بالنفع والخير عليهم. مما يدل على مدى الشوط الذي قطعه المجتمع العراقي القديم في المجال الفكري آنذاك .

وقد أحتلت الحرية الدينية حيزاً مهماً في مجتمع بلاد الرافدين، إذ كانت ممارسة العبادة وتأدية الطقوس من الأمور التي أولى لها الناس أهمية بالغة، فإختيار العراقيين القدماء لمعتقدهم الديني كان نابعاً من إرادتهم الحرة دون أي إجبار أو إكراه، ودليلنا على ذلك تعدد الآلهة لديهم.

أما حرية إبداء الرأي، فقد كان لها ميزة خاصة في بعض النصوص السومرية والأكدية، خاصة بين الموظفين والحكام أو بين الحكام أنفسهم من خلال كتاباتهم، وذلك من خلال العبارات النصية التي تدل على أن هناك بعض الموظفين أو الحكام التابعين لملوكهم قد نصحوا الملوك من خلال إبداء آرائهم بدافع الحرص على مصلحة الدولة، وهؤلاء الملوك كانوا يتقبلون هذه الآراء لأنها تستهدف خدمة الملك، هذا وكانت حرية اللغة واحدة من أهم عوامل وحدة العراقيين القدماء ولاسيما في بعض الفترات التاريخية القديمة، ومن ذلك إنتشار اللغة الآرامية في نهاية الألف الأول قبل الميلاد، كان له الأثر البالغ في إستعمالها بوصفها لغة مخاطبة وتدوين إلى جانب اللغة الأكدية .

مدخل

تُعد الحرية واحدة من المواضيع المهمة في بلاد الرافدين، إذ تعكس لنا مدى النضج الفكري الذي وصل إليه أبناء المجتمع العراقي القديم آنذاك، من خلال قدرتهم على التعبير عن وجهة نظرهم بمختلف وسائل التعبير وعن آرائهم في سياسة حكامهم وملوكهم التي تعود بالنفع والخير عليهم، فقد أصبح حق الرأي وحرية التعبير وحرية ممارسة الأنشطة التجارية على مختلف أشكالها وأنواعها متممة ومتفرعة عن حرية الفكر واللغة والعقيدة آنذاك.

وللحرية مفهوم واسع وشامل فقد وردت في المعاجم الأكدية بصيغة

(andurāru)[١] وتعني تحرير، عتق بجميع معانيه (ديون تجارية)، عتق عبد، إلغاء خدمات فرضت بشكل غير شرعي على شخص حُر[٢].

ويبدو من أحد النصوص التي وردتنا من العصر الأشوري القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠ ق.م) والعائد للحاكم الأشوري (أيلو- شوما Ilu - Šamma)، إن مصطلح (aduraar)[٣] يعني الحرية بكل معناها الواسع، فضلاً عن حرية ممارسة النشاطات التجارية، إذ نقرأ ما يلي : "ثبتُ حرية الأكديين وأبنائهم، نقيت نحاسهم، وثبت حرياتهم من حدود الأهوار وأور[٤] ونفر[٥]، .....، فضلا عن مدينة أشور"[٦].

وتتضح الحرية في بحثنا هذا من جوانب عدة، منها ما يتعلق بحرية المعتقد الديني إذ كانت ممارسة العبادة وتأدية الطقوس من الأمور التي أولى لها الناس أهمية بالغة، فإختيار العراقيين القدماء لمعتقدهم الديني كان نابعاً من إرادتهم الحرة دون أي إكراه أو إجبار، وما تعدد الآلهة إلا دليل على ذلك، ولاقت حرية إبداء الرأي صدىً واضحاً في بعض النصوص، أما بين عامة الناس أو بين الحكام أنفسهم أو بين الموظفين المعينين من قبل الملوك، أما حرية اللغة فكانت واحدة من أهم عوامل وحدة العراقيين القدماء في بعض الفترات التاريخية القديمة، وسنحاول في هذا البحث أن نفصل القول في بعض من هذه الجوانب وكالآتي:

- حرية المعتقد الديني

يأتي الدين في مقدمة حضارة كل أمة سواءً أكانت حضارتها أصيلة أم مقتبسة، وهو عنصر مهم تشترك فيه كل أنواع الحضارات بإختلاف مراتبها في سلم الرقي والإبداع وهو المحور الذي تدور عليه مُثُل الإنسان ومصدر إلهام وتوجيه لفنونه وآدابه وسلوكه وإتجاهاته في ميادين حياته الإجتماعية والإقتصادية ولا يشذُ عن ذلك سكان العراق القدماء السومريون منهم والبابليون والأشوريون، إذ عُدّ الدين لديهم المكان الأول في حياتهم العامة والخاصة، ولا نبالغ إذا قلنا أن تاريخ وحضارة بلاد الرافدين يتعذر لا بل يستحيل فهمها ما لم يُدرس الدين قبل كل شيء، إذ بلغ تغلغل الدين وأثره في كل ناحية من حضارته مبلغاً جعل جميع معارفه وعلومه وآدابه لا يمكن البحث فيها مستقلة عن الدين حتى ليصح أن نُسمي حضارة بلاد الرافدين مثل غيرها من حضارات الشرق القديم بأنها "حضارة دينية"[٧].

وقد أحتلت الحرية الدينية حيزاً بارزاً في مجتمع بلاد الرافدين، إذ كانت ممارسة العبادة وتأدية الطقوس من الأمور التي كان لها اثر كبير عند عامة الناس، فقد إهتم

العراقيون القدماء إهتماماً كبيراً ببناء معابد الآلهة، إذ كانوا يقيمون فيها الصلوات وتقديم القرابين للآلهة، وكان يشرف على إدارة تلك المعابد وتأدية الشعائر الدينية كهنة مختصون يحملون ألقاباً دينية تعبر عن طبيعة الأعمال الموكلة بهم(٨).

وبما أن الإيمان بوجود الآلهة قد بعثت الأمان والإطمئنان في نفوس العراقيين القدماء، فإن إختيار العراقيين القدماء لمعتقدهم الديني كان نابعاً من إرادتهم الحرة دون أي إكراه أو إجبار، فنلاحظ مثلاً أن الحرية الدينية كانت واضحة من خلال مبدأ الشرك (Polytheism) أي تعدد الآلهة، إذ إعتقد العراقيون القدماء بوجود عدد كبير من الآلهة تملؤ أسماؤها معجماً كبيراً، قد تصل أعدادها إلى المئات، وهذه الأعداد الكبيرة من الآلهة تؤكد على أن سكان بلاد الرافدين كان لديهم حرية في إختيار آلهتهم والتي بدورها يتحدد المعتقد الديني لديهم(٩).

ويبدو أن حرية المعتقد الديني والمتمثلة بكثرة الآلهة في حضارة بلاد الرافدين نشا في الأصل من القوى والظواهر الطبيعية البارزة في هذا الكون، ولاسيما القوى التي كانت تؤثر في حياة الناس كالكواكب والظواهر الجوية المختلفة وفي مقدمتها الشمس والقمر والسماء والهواء والأرض والمياه، وإلى هذه الأصول يمكن القول أنهم خصصوا لشؤون الحياة المختلفة المهمة آلهة تتحكم فيها وتسيرها كالموت والولادة والغلال والخصب والأمراض وغيرها من مظاهر الحياة الطبيعية والبشرية ، ولما كانت ظواهر الكون والحياة تتفاوت في اهميتها وأثرها في حياة البشر، لذلك كانت الآلهة التي عبدت في حضارة بلاد الرافدين متفاوتة في أقدارها ودرجاتها ومنزلة عبادتها وتقديسها(١٠).

إن المعتقد الديني والمتمثل بالآلهة التي عبدت في بلاد الرافدين كانت من حيث الشهرة والنفوذ على صنفين ، الأول ثانوي كانت عبادته محدودة في حدود دويلة المدينة التي كانت تحت حمايته، والثاني كانت عبادته معروفة على صعيد البلاد كلها وهي الآلهة الرئيسة التي كان يتألف منها مجلس الآلهة والتي يأتي على رأسها آنو(١١) إله السماء ، ويمكن القول أن مراكز الآلهة كانت تتغير أحياناً بتغير الظروف السياسية فيرتفع شأن بعضها وينال شهرة كبيرة بين الناس مثلما حدث للإله مردوك عندما أصبح إله المملكة البابلية في سيادة الأموريين والكلديين ، ومثلما حدث أيضاً للآله أشور أبان السيادة الأشورية(١٢).

ويعتقد أحد الباحثين أن الآلهة خلقت الإنسان ليعبدها ولما كانت الغاية التي خلق من أجلها الإنسان عبادة الآلهة، فعدم تحقيق هذه الغاية أو التقصير فيها يُعرض الإنسان إلى

بطشها ونقمتها في هذه الحياة في شتى ضروب العقاب، فقد سببت الآلهة الطوفان العظيم الذي أفنى معظم البشر بسبب ذنوبهم وآثامهم أي بسبب تقصيرهم في تحقيق ما فرض عليهم من فروض الدين، فنلاحظ أن كل فرد في المجتمع العراقي القديم كان له إله خاص به، عدا تعلقه الشديد بالآلهة الأخرى وهذا الآله هو إلهه الشفيع الحامي الذي تكون علاقته به كعلاقة الأبن بالأب، ويبدو أن هذه الصفة تبين أن العراقيين القدماء كانت لهم الحرية المطلقة في إختيار ألهتهم والتي يتوضح من خلالها معتقدهم الديني عبر عصورهم القديمة(١٣).

هذا وقد وردت في كتابات بعض حكام وملوك بلاد الرافدين عبارات يفهم من معناها أنها توحي إلى إهتمامهم بحرية المعتقد الديني، فمثلاً يخبرنا الملك لبت عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ ق.م) خامس ملوك سلالة أيسن(١٤) في مقدمة قانونه(١٥) بأنه قام بإطلاق الحرية في مدينة نفر ومدينة أور ومدينة أيسن وكل مدن سومر وأكد، والحرية التي ذكرها الملك لبت عشتار قد أطلقها بسبب الظلم والعبودية الذي وقع على أبناء وبنات هذه المدن التي ذكرها في مقدمة قانونه، ويمكننا القول ومن خلال قراءة نص المقدمة الذي يذكر فيه الملك بإطلاقه للحرية للأبناء والبنات الساكنين في المدن المذكورة في النص، بأنها تشمل حرية المعتقد الديني كذلك، لأن النص يذكر بأن هؤلاء الأبناء والبنات أي(السكان) قد خضعوا ....(للنير)(١٦)، أي للظلم والعبودية، فالنير أو الظلم أو العبودية المذكور في نص المقدمة لايتحدد بمعنى واحد وأنما بمعاني ومفاهيم عدة عاشتها تلك المدن المذكورة في نص المقدمة ويبدو أن الحرية التي أطلقها الملك لبت عشتار على سكان نفر وأور وأيسن تشمل كذلك السماح لهم بأختيار معتقدهم الديني حسب إرادتهم الحرة، لأن الحرية التي ذكرها الملك لبت عشتار واسعة المعاني فيقول "....أعطيتهم راغباً حريتهم كهدية لهم ...." وفيما يلي بعض مما جاء في نص المقدمة، وكالأتي : "..... آنذاك (عندما) فرضت العبودية ظلماً على رقاب أولاد وبنات (سكان) مدينة أور وأولاد وبنات مدينة أيسن وأولاد وبنات سومر وأكد أعطيتهم راغباً حريتهم كهدية لهم....."(١٧).

أما في بلاد أشور فيبدو أن الناس كانوا يرون أنفسهم في مجتمع كانت فيه جميع السلطات التي يتبعونها تمثل في النهاية مصدر قوة واحدة وهو الملك، ومن خلال قراءة أحد النصوص الدينية يفهم من معناها أن الأشوريين عبدوا ألهةً عدة أي كانت لديهم حرية واسعة في إختيار آلهتهم، فالنص الآتي الموجه إلى الإله ننورتا(١٨) يفهم منه أن أنليل(١٩) وآنو وأدد(٢٠) ومردوك(٢١) كلها آلهة عبدت في بلاد أشور، فنقرأ ما يلي : "..... عيناك،

أيها السيد، هما عينا أنليل وننليل، ..... شفتاك الإثنتان هما (شفتا) آنو وأننو، رأسك هو أدد الذي خلق السماء والأرض....، جبينك هو (جبين) شالا ، قرينته المحبوبة التي تفرح القلب، رقبتك هي (رقبة) مردوك...."[٢٢].

وعلى الرغم من أن المعتقد الديني للملوك الأشوريين كان قوياً وراسخاً في إلههم القومي أشور وثقتهم العالية بقدرتهم على تحقيق النصر الذي كان العامل الرئيس في بناء مملكة مترامية الأطراف، إنهم لم يرغموا الأقوام أو البلدان التي أخضعوها لسلطانهم على ترك ألهتهم وعبادة أشور بل على النقيض من ذلك أتاحوا لهم حرية المعتقد الديني ومزاولة طقوسهم الدينية كافة، ولعل هذا ما نتلمسه من رسالة بعث بها شخص إلى الملك الأشوري تضم أدعية وصلوات للملك وأولاده[٢٣]، إذ يقول في إحدى فقراتها ما يأتي : "أصلي كل يوم وليل، صباحاً ومساءً إلى الآلهة العِظام آلهة السماء والأرض آلهة بلاد أشور وآلهة بلاد بابل وكل البلدان لأجل حياة سيدي الملك وأبناء الملك"[٢٤].

ويبرز من بين الملوك الكلديين، الملك نبونائيد الذي تسلم مقاليد الحكم في مدينة بابل للمدة (٥٥٥ – ٥٣٩ ق.م)، وتتضح حرية المعتقد الديني لدى هذا الملك من خلال التغييرات التي أحدثها هذا الملك في المعتقدات الدينية والشعائر الخاصة بها وركز على عبادة الآله (سين)[٢٥] إله مدينة حران، ولكن دون نبذ عبادة الآلهة الأخرى في مدينة بابل، مما يؤكد أن المجتمع في مدينة بابل كان له حرية واسعة في إختيار الآلهة التي يعبدونها، وأن الملك نبونائيد كان يعطي الناس حرية كاملة في إختيار معتقدهم الديني داخل مدينة بابل[٢٦].

لقد كان من المؤكد أن الديانة التي سعى نبونائيد إلى تحقيقها تشكل ضرورة قصوى إستدعتها الظروف التي إستجدت في المنطقة، لاسيما بعد ضم القبائل الآرامية التي كانت تسكن في مدينة (حرّان) والتي كانت تدين بعبادة الآله (سين) بينما بقيت بلاد بابل تدين بآلهها المحلي مردوك، فكانت الحرية الدينية التي دعا إليها الملك نبونائيد هي الحل الأسلم لجمع شمل تلك الأقوام المختلفة في أصولها وعادتها لما للديانة من أثر روحي كبير في توحيد الصفوف وبالتالي فإن تلك الحرية تنعكس على وحدة البلاد وتماسكها من أجل الوقوف بوجه أي إعتداء خارجي عليها، ولذلك فإن ما إدعاه بعض الباحثين بأن الملك نبونائيد كان قد نبذ ألوهية (مردوك) وعبدالآله (سين) هو إدعاء باطل والدليل على ذلك أن الملك نبونائيد كانت لديه الحرية في إختيار الآلهة التي يعبدها بدليل أنه كان يذكر الآله (مردوك) خلال كتاباته ويمجده قبل ذكر بقية الآلهة ومنهم الآله (سين)[٢٧].

فنقرأ في أحد نصوص الملك نبونائيد تمجيده وتعظيمه للآله سين والآله شمش والآله أدد وهذا يؤكد أنه كان يسمح للناس بإختيار الآلهة التي يعبدونها داخل مدنهم، فنقرأ ما يلي: "وبعد أن أتممت العرافة، وأعطتني جواباً مرضياً، مجدت كلمة الآله سين ..... وأوامر الآله شمش وأدد ....."[٢٨].

- حرية إبداء الرأي

إن قدرة الإنسان الطبيعية على النطق والتفكير تدل على أن للإنسان حقاً طبيعياً في حرية الكلام والتعبير عن فكره أو رأيه ضمن حدود المحافظة على الآداب والأخلاق العامة وحقوق وحريات الآخرين[٢٩].

وقد أقرت الشرائع السماوية الحق في حرية إبداء الرأي لكل إنسان على أن لايمس بحقوق الآخرين، وأن لا تؤدي حريته في إبداء الرأي إلى إفتعال الفتن أو المشاكل بين الناس، وبالتالي أوجبت هذه الشرائع أن يستخدم الإنسان حريته في الكلام والتعبير عن الرأي من أجل إحقاق الحق والعدل والخير للجميع، وأن تكون الطرق التي يعبر فيها عن رأيه سلمية[٣٠].

ويبدو أن حرية إبداء الرأي قد ظهرت في بلاد الرافدين منذ فجر السلالات السومرية (٢٨٠٠-٢٣٧٠ ق.م)، وإستناداً إلى رأي أحد الباحثين كانت السلطة العليا في أقدم مجتمع سومري بيد مجلس عام يضم جميع المواطنين (الرجال والنساء) يجتمع ليقرر ما يجب عمله في الحالات الطارئة والتي تنذر بالخطر مثل حالة الحرب أو الفيضان المفاجئ أو تفشي الوباء، وكان لكل مواطن حرية إبداء الرأي، غير أن إبداء رأي بعضهم لاسيما الرجال المسنين كان طبيعياً أكثر وزناً من رأي الآخرين، وكان النقاش يستمر حتى يتم الوصول إلى قرار نهائي وبالإجماع[٣١].

وتشير قصة[٣٢] جلجامش حاكم مدينة الوركاء، وآجا حاكم مدينة كيش والتي يعتقد أنها حدثت في أواخر عصر فجر السلالات الثاني (في حدود ٢٥٠٠ ق.م) إلى أن جلجامش عندما أراد أن يخوض الحرب مع آجا حاكم مدينة كيش، بدأ ياخذ آراء المسنين أول الأمر وعندما عارضه هؤلاء لم يقم جلجامش بتنفيذ الخطوات المرسومة إلا بعد أن دعا إلى عقد مجلس عام ضم جميع الذكور من المواطنين ليتم فيه التشاور وإبداء الرأي لإتخاذ القرار المناسب، وقد جاء تأكيد ذلك في أحد النصوص وكالآتي : ".... فوضع السيد جلجامش أمام شيوخ مدينته، الأمر طلباً لكلمتهم....."[٣٣]. وفي نص آخر نقرأ ما

يلي: "..... ولم يقتنع جلجامش، .... بكلمات شيوخ مدينته قناعة قلبية، .... مرة أخرى جلجامش عرض الآمر على رجال مدينته وطلب كلمتهم..."[٣٤].

ومن عصر سلالة أور الثالثة (١١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م) نقرأ في إحدى الرسائل الموجهة من قبل حاكم مدينة أيسن (أشبي إيرا) إلى الملك أبي سين[٣٥]، عن قيام الملك أبي سين بإصدار أمراً إلى أشبي إيرا، لشراء كميات من الشعير من مدينة أيسن، وذكر أشبي إيرا في الرسالة معلومات مهمة وخطيرة عن الوضع الإقتصادي في المدن السومرية الخاضعة لسيطرة أبي سين، ونلاحظ في هذه الرسالة أن أشبي إيرا يبدي رأيه للملك أبي سين وبكل صراحة وبدون تخوف من أن لا يتجه الملك أبي سين في طلب مساعدة إقتصادية أو عسكرية من العيلاميين أو عقد تحالف معهم، وهذا يؤكد على ان حرية إبداء الرأي والمشورة من قبل الحكام إلى ملوكهم كانت موجودة في عصر سلالة أور الثالثة بحسب ما تقتضيه الظروف سواء أكانت إقتصادية أم سياسية، ويوضح مفهوم الرسالة على مدى حرص الملك أبي سين على توفير مادة الشعير بوصفه مصدراً غذائياً رئيساً في مدينة أور والمدن السومرية الأخرى التابعة لحكمه، وفيما يلي مقتطفات مما جاء في هذه الرسالة، وكالآتي: "إلى أبي سين ملكي، قل ، هكذا يقول أشبي إيرا خادمك: لقد وليتني مسؤولية حملة إلى أيسن وكزالو لشراء الشعير، لقد وصل الشعير.....، وإذا إحتجت إلى الشعير فإنني سأجلب الشعير لك.....، أن العيلاميين قد ضعفوا في المعركة، .....، فلا تضعف ولا توافق على أن تكون عبداً لهم ولا تمشي وراءهم ...."[٣٦].

وتأتي حقبة العصر البابلي القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠ ق.م) والتي نلاحظ فيها طول الفترة الزمنية التي شغلتها هذه الحقبة، إذ شهدت إختلاف الأوضاع السياسية العامة، من خلال قراءة معظم نصوص هذه الفترة الزمنية تظهر لدينا تعابير عامة يفهم منها عبارات نصح وإبداء آراء إما بين عامة الناس أو بين الحكام أو بين الموظفين المعينين من قبل الملوك، فمثلاً نقرأ في إحدى رسائل الملك أشمي – دكان[٣٧] (١٧٨١ – ١٧٤٢ ق.م) إلى أخيه يسمخ – أدد[٣٨]، وهو يؤنب أخاه يسمخ – أدد لسوء تصرفه وعدم إستشارته لآراء الآخرين عند إتخاذ القرارات في قضايا عامة تخص مدينة ماري، وفيما يلي بعض مما جاء في الرسالة، وكالآتي : "بخصوص ثبات (تعيين) أياش – تولا على مدينة قطانم، تلوم نفسك وملامتك تعيدها إلى الملك ...، لماذا أطيل عليك ولا كتب لك .....، في ذلك لم ينصحوك (يشاوروك)....."[٣٩].

وفي رسالة أخرى لاشمي– دكان مرسله لأخيه يسمخ – أدد وهو يقدم فيها المشورة

والنصيحة وإبداء الرأي لأخيه بأن يكون حذراً وناضج التفكير في توجيه جيشه، ولا يتسرع أو يتهور بالتقدم نحو العدو، وقد جاء النص ، وكالآتي : "أنت تواصل البحث عن فرصة لقتل العدو وهو يواصل البحث عن فرصة ويجوس خلسة حولك...، ولكن إلتفت إلى المثل القديم الذي يقول، الكلبة في إستعجالها تلد جراءً عمياء، فلا تتصرف بالطريقة نفسها"(٤٠).

أما حرية إبداء الرأي في بلاد أشور، فيبدو أنها كانت صفة مميزة في المجتمع الأشوري في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد وذلك من خلال الكتابات الملكية لمعظم حكام وملوك بلاد أشور، فضلا عن العديد من الرسائل الإدارية والتي نفهم مما جاء في بعضها أنها ذات طابع تعبيري حُر سواء ما بين الحكام والملوك أو ما بين الموظفين والحكام في المقاطعات الأشورية، ومن المعروف أن الملوك الأشوريين كانوا يمثلون أنموذجاً للملوك الأقوياء في تاريخ بلاد الرافدين، إلا أن هناك ما يدل على أن بعض الأشخاص قد نصحوا الملوك من خلال إبداء الآراء لهم بدافع الحرص على مصلحة الدولة، ويبدو أن الملوك كانوا يتقبلون هذه الآراء إن كانت تستهدف خدمة الملك والمحافظة على كيان الدولة (٤١).

وسوف نستعرض في بعض مما جاء في تلك النصوص، فمن مضمون إحدى الرسائل والمرسلة من قبل أحد حكام المقاطعات الأشورية إلى الملك الأشوري أشور- آخي – ادن (أسرحدون(٤٢) ٦٨٠- ٦٦٩ ق.م) نقرأ بعض العبارات والتي يفهم من مضمونها حرية التعبير، إذ يعبر فيها المرسل عن رأيه بحرية تامة عن الطريقة التي إعتمدها الملك أشور- آخي – ادن في تعيين إثنين من أولاده في منصب ولاية العهد، ونقرأ في بعض مما جاء في تلك الرسالة، وكالآتي : "إلى الملك سيدي، خادمك.... أن بعض الأشياء التي يجب ألا تعمل حتى في السماء قام بها سيدي الملك على الأرض، ..... أن ما قام به الملك سيدي لأجل أبنائه ليس عملاً جيداً للأشوريين، .... أن الملك سيدي وضع خطة غير جيدة ..... وفي هذه القضية أنك تبدو ضعيفاً....."(٤٣).

ونقرأ في إحدى التراتيل الأدبية والمهداة للملك أشور – بان – ابلي (أشور بانيبال(٤٤) ٦٦٨-٦٢٧ ق.م) من شعراء عصره بمناسبة تتويجه ملكاً على العرش الأشوري، عبارات شعرية يفهم من معناها حرية إبداء الرأي بالنسبة لعموم الناس سواء كانوا صغاراً أم كباراً، إذ بإستطاعة الصغار والكبار من عموم الناس أن يتكلموا بحرية وبلا خوف، وهذا يؤكد على إشاعة روح التسامح والأخوة بين سكان المجتمع الأشوري في ذلك

الوقت، فنقرأ في بعض ما جاء في تلك الترتيلة، وكالآتي : "ليرفع الآله أشور، ملك السماء والأرض.....، ليتكلم الصغير وليسمع الكبير، وليتكلم الكبير وليسمع الصغير، ليعم السلام والوفاق في بلاد أشور"(٤٥).

- حرية اللغة

تُعد اللغة أهم وسيلة من وسائل التعبير الإنساني الإرادية، وقد لازمت الإنسان منذ أن خُلق وكان لكل مجموعة من البشر لغة يتفاهمون بها مهما كان مستوى تلك المجموعة الحضاري(٤٦).

ويبدو أن معرفة اللغة وتعلمها تُعد أقدم ما عرفه الإنسان بعد أن إبتدع الكتابة، لأن أي نص مهما كان نوعه لا يمكن أن يدون ويقرأ بدون معرفة اللغة، وقد إستخدم العراقيون القدماء في الألف الثالث قبل الميلاد لغتين رئيستين هما اللغة السومرية واللغة الأكدية وكلتاهما دونت بالخط المسماري(٤٧).

وقد ظلت اللغة الأكدية بخطها المسماري هي اللغة التي تتعامل بها ممالك الشرق الأدنى القديم في مراسلاتها الدولية، إلا أن إنتشار اللغة الآرامية في كل من بلاد الشام وبلاد الرافدين بالذات بعد القرن الثامن قبل الميلاد نتيجة لسهولة تعلم خطها الأبجدي وكتاباتها البسيطة مقارنة مع اللغة الأكدية بخطها المسماري المعقد أدى إلى منافستها اللغة الأكدية بوصفها لغة دولية، وهكذا بدأت اللغة الأكدية تفقد مكانتها شيئاً فشيئاً حتى بطل إستعمالها نهائياً مع نهاية الألف الأول قبل الميلاد(٤٨).

فمثلاً كانت حرية إستعمال اللغة في بلاد أشور واحدة من أهم عوامل وحدة الأشوريين وظهورهم بوصفهم كياناً سياسياً مستقلاً في المنطقة غير أن إنتشار اللغة الآرامية في نهاية الألف الأول قبل الميلاد وما رافق ذلك أيضاً من دخول أعداد كبيرة من الآراميين إلى بلاد أشور على أثر سياسات الترحيل التي أنتهجها الملوك الأشوريون في أعقاب حملاتهم العسكرية أبان هذا العصر كان له الأثر البارز في إستعمال اللغة الآرامية بوصفها لغة مخاطبة وتدوين في بلاد أشور إلى جانب اللغة الأكدية وأن كان على نطاق ضيق، ويستدل على ذلك من خلال التذيل الآرامي الوارد في نهاية عدد كبير من الوثائق الإقتصادية الأشورية للإشارة إلى مضمون تلك الوثائق باللغة الآرامية، فضلاً عن بعض الإشارات النصية في الرسائل الإدارية(٤٩).

ومن ذلك وعلى سبيل المثال رسالة بعث بها شخص إلى الملك الأشوري يخبره عن

جرائم إقترفها ستة أشخاص من مقاطعة كوزانا[٥٠]، يقول في إحدى فقراتها ما يأتي : "جريمتهم الأخرى (في عهد) أبي سيدي الملك دونوا حصة الفضة العائدة للرعيان على وثيقة أشورية (و) وثيقة آرامية وختموا مبلغ الفضة مع ختم أمين الصندوق....."[٥١].

ونقرأ في إحدى رسائل الملك الأشوري سرجون الثاني[٥٢] (٧٢١-٧٠٥ ق.م) والموجهة إلى أحد حكامه في مدينة أور عبارات يفهم منها حرية إستخدام اللغة في مراسلات الملوك والحكام التابعين في بلاد أشور، إذ نقرأ ما يلي: "بالنسبة لما كتبته، إذا كان هذا مقبولاً بالنسبة للملك، فسوف أكتب رسائلي بالآرامية وأرسلها.....، لماذا لا تكتب رسالتك بالأكدية وترسلها....."[٥٣].

هوامش البحث

(1) Black, J. and Others.: Aconcise Dictionary of Akkadian, Harrassowitz Verlage, Wiesbaden, 2000, P.17 , Parpola, S.: The Helsinki Neo- English – Assyrian, Assyrian - English Dictionary, Finland, 2002, P.67.

(٢) الجبوري، علي ياسين: قاموس اللغة الأكدية – العربية، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)، ٢٠١٠، ص٥٠ .

(3) Grayson, A.K.: Assyrian Royal Inscription of Mesopotamia Assyrian periods, Vol. I, Assyrian Rulers of the Third and Second Millennia BC (To 1115 BC), Toronto, 1987, P.18 .

(٤) أور: تقع هذه المدينة السومرية على بعد ١٥ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة الناصرية وهي مركز عبادة آله القمر ننار– سين، عن ذلك ينظر: صالح، قحطان رشيد: الكشاف الأثري في العراق، بغداد، ١٩٨٧، ص٢٥٣ .

(٥) نفر: وهي إحدى الحواضر السومرية الكبيرة، إذ كانت في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد مركزاً دينياً وثقافياً لبلاد سومر، إذ تقع هذه المدينة على بعد ٣٥ كم تقريباً إلى الشمال الشرقي من مدينة الديوانية وعلى بعد ١٠ كم تقريباً من مدينة عفك، عن ذلك ينظر: صالح، قحطان: المصدر السابق، ص ٢٣٥ .

(6) Grayson, A.K.: OP. cit, P. 18.

(٧) باقر، طه: "ديانة البابليين والأشوريين"، بحث منشور في سلسلة دراسات وبحوث طه باقر المنشورة في مجلة سومر، ج١، عدد ١٦، بغداد، ٢٠٠٩، ص ١١٥ .

(٨) علي، فاضل عبدالواحد: "المعتقدات الدينية"، موسوعة الموصل الحضارية، المجلد الأول، الموصل، ١٩٩١، ص ٣٠٥ .

(٩) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ط١، بغداد، ١٩٩٣، ص٣٢٩، للمزيد عن

تعدد الآلهة ينظر: Frankfort, H.: Kingship and the Gods, London, 1948 .

(١٠) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، المصدر السابق، ص ٣٣٠ .

(١١) آنو: وهو إله السماء الرئيس وكبير الآلهة في تصور العراقيين القدماء، وكانت سماء آنو حسب إعتقادهم أعلى السماء من السماوات السبعة، للمزيد من ذلك ينظر: الشاكر، فاتن موفق فاضل علي: رموز أهم الآلهة في العراق القديم – دراسة تاريخية دلالية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص١٢.

(١٢) علي، فاضل عبدالواحد: المعتقدات الدينية، المصدر السابق، ص٣٠٥-٣٠٦ .

(١٣) باقر، طه: ديانة البابليين .....، المصدر السابق، ص١٢٢-١٢٣ .

(١٤) أيسن: وتعرف حالياً باسم (ايشان البحريات) تقع بالقرب من مدينة (عفك) حوالي ٢٠كم جنوباً و٤٠كم إلى الجنوب الشرقي من محافظة الديوانية، للمزيد من ذلك ينظر: صالح، قحطان: المصدر السابق، ص٢٤٣.

(١٥) هو ثاني القوانين التي وصلت إلينا بعد قانون أورنمو وقد كشف في أثناء أعمال الحفر والتنقيب في مدينة نفر الأثرية، وقد كتب هذا القانون باللغة السومرية، وأمكن التعرف على نصوصه مدونة على لوح كبير من الطين مهشم إلى ثلاث قطع، للمزيد من ذلك ينظر: رشيد، فوزي: الشرائع، العراق في موكب الحضارة، ج١، بغداد، ١٩٨٨، ص ٢٤٣ .

(١٦) سليمان، عامر: نماذج من الكتابات المسمارية، ج١، بغداد، ٢٠٠٢، ص٤٤ .

(17) Roth, M.T.: Law collections from Mesopotamia and Asia Minor, second Edition, Vol. 6 , USA, 1997 , P.25 .

(١٨) ننورتا: ويعتبر هذا الآله إلهاً للحرب وإلهاً للصيد، ومركز عبادته في مدينتي نفر ونمرود، ويعتبر كذلك إبناً للإله أنليل إله الهواء، عن ذلك ينظر: رشيد، فوزي: الشرائع العراقية القديمة، ط٣، بغداد، ١٩٨٧، ص٢٣١ .

(١٩) أنليل: وهو إله الجو، ومركز عبادته مدينة نفر، ويعتبر هذا الإله إبناً للإله آنو إله السماء، الشاكر، فاتن: المصدر السابق، ص٢٤ .

(٢٠) أدد: وهو إله الطقس والعواصف، ويلفظ باللغة السومرية (أشكور) وبالأكدية (أدد)، للمزيد عن ذلك ينظر: المصدر نفسه، ص١٤٣ .

(٢١) مردوك: وهو إلاله الرئيس لمدينة بابل ومعبده يدعى (أيساكيلا) ويعتبره العراقيون القدماء إله العلم والسحر، للمزيد عن ذلك ينظر: المصدر نفسه، ص١١٥ .

(٢٢) ساكز، هاري: قوة أشور، (لندن، ١٩٨٤)، ترجمة عامر سليمان، بغداد، ١٩٩٩، ص٢٩٠ .

(٢٣) سعيد، صفوان سامي: "حقوق رعايا المملكة الأشورية في عصرها الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م)"، مجلة كلية الآداب، العدد ٥١، الموصل، ٢٠٠٨، ص ٢٤٧-٢٤٨ .

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٤٨ ؛ للإطلاع على النص بالكامل، ينظر:
Parpola, S.: Letters from Assyrian and Babylonian scholars, state Archires of

Assyria- SAA, Vol. X , Finland , 1993, p.172.

(٢٥) سين: وهي التسمية الأكدية للآله (ننار) إله القمر، ومركز عبادته كان في مدينة أور، عن ذلك ينظر: بوستغيت، نيكولاس: حضارة العراق وآثاره، ترجمة: سمير عبدالرحيم الجلبي، بغداد، ١٩٩١، ص١٤٠.

(٢٦) غزالة، هديب حياوي عبدالكريم: الدولة البابلية الحديثة والدور التاريخي للملك نبونائيد في قيادتها، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩، ص١٧٤ .

(٢٧) المصدر نفسه، ص١٧٦ .

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٧٥ .

(٢٩) الخطيب، سعدى محمد: حقوق الإنسان بين التشريع والتطبيق، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٩،ص٦٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٦٣-٦٤ .

(٣١) ساكز، هاري: عظمة بابل، ط١، (لندن، ١٩٦٢)، ترجمة: عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص٥٧.

(٣٢) تشير هذه القصة أن حاكم كيش (آجا) عندما شعر بالقوة، ورغبة في مد نفوذه وتوسيع سلطانه وضم مدينة الوركاء إلى حدود مملكته، بعث برسله إلى جلجامش حاكم الوركاء منذراً ومهدداً وطالباً منه الإستسلام والخضوع والإعتراف بسيادة كيش وحاكمها، للمزيد عن ذلك ينظر: باقر، طه: مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، ١٩٧٦، ص١٢٦-١٢٨.

(٣٣) كريمر، صموئيل نوح: السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي، الكويت، ١٩٧٣، ص٢٥٨ .

(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٥٩.

(٣٥) أبي سين: هو ابن الملك شوسين، توج ملكاً على عرش دولة أور الثالثة، وكان صغير السن وكان ذلك حوالي ١٥٩٥ ق.م، للمزيد عن ذلك ينظر: المتولي، نوالة أحمد محمود: مدخل في دراسة الحياة الإقتصادية لدولة أور الثالثة في ضوء الوثائق المسمارية، المنشورة وغير المنشورة، الهيئة العامة للأثار والتراث، بغداد، ٢٠٠٧، ص٢٧.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٣١٢ .

(٣٧) أشمي – دكان: الابن الأكبر للملك شمشي أدد الأول (١٨١٣-١٧٨١ ق.م)عُين حاكماً على ايكلاتم وهي الجهة المقابلة لبلاد بابل، إتسم بالدهاء السياسي والقيادة الفذة، للمزيد من ذلك ينظر: الجبوري، سالم يحيى خلف: المضامين السياسية والإقتصادية في رسائل منشورة من العصر البابلي القديم (١٨١٣-١٧٥٠ ق.م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص٥.

(٣٨) يسمخ – أدد: الأبن الأصغر للملك شمشي أدد عين حاكماً على مملكة ماري، للمزيد من ذلك ينظر: المصدر نفسه، ص٥ .

(٣٩) المصدر نفسه، ص٦ .

(٤٠) دالي، ستيفاني: ماري وكارانا (مدينتان بابليتان قديمتان)، ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد، ٢٠٠٨، ص٦٣-٦٤.

(٤١) الزيباري، محمد صالح طيب صادق: النظام الملكي في العراق القديم – دراسة مقارنة مع النظام الملكي المصري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩، ص٥٣.

(٤٢) أسرحدون: كان قائداً عسكرياً فذاً، إستطاع أن يملأ الفراغ السياسي الحاصل في قمة الهرم الإداري للدولة الأشورية بعد أن تمكن من القضاء على قتلة أبيه سنحاريب، وإعتلائه العرش بسرعة منقطعة النظير، للمزيد من ذلك ينظر: الفتلاوي، أحمد حبيب سنيد: أسرحدون ٦٨٠-٦٦٩ ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠٠٦،

(43) SAA , Vol. X, P.152.

(٤٤) أشور بانيبال: الملك الثالث عشر بعد المائة في تسلسل الملوك الذين حكموا الدولة الأشورية، حكم لمدة أربعين عاماً خلال الفترة من٦٦٨-٦٢٧ ق.م، وقد كان قائداً حربياً ورجل دولة من الطراز الأول، للمزيد من ذلك ينظر: الدوري، رياض عبدالرحمن: أشور بانيبال ٦٦٩-٦٢٧ ق.م سيرته ومنجزاته، رسالة ماجستير غيرمنشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٦.

(٤٥) الطائي، نبيل خالد شيت سليمان: التراتيل في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٨، ص١١٧-١١٨.

(٤٦) سليمان، عامر: "اللغة والكتابة"، موسوعة الموصل الحضارية، ج١، الموصل، ١٩٩١، ص٣٣٧.

(٤٧) النعيمي، شيماء علي أحمد عبدالرزاق: المناهج التعليمية في العراق القديم في ضوء النصوص المسمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠١، ص٥١ .

(٤٨) إسماعيل، شعلان كامل: العلاقات الدولية في العصور العراقية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٠، ص٦٧.

(٤٩) سعيد، صفوان سامي: المصدر السابق، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٥٠) كوزانا: مدينة أشورية نهضت في حدود القرن الحادي عشر قبل الميلاد على مقربة من منابع الخابور في أعالي نهر الفرات، وتعرف خرائبها حالياً باسم (تل حلف)، عن ذلك ينظر: النجفي، حسن: معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم، ط١، بغداد، ١٩٨٢، ص١٢٠.

(٥١) سعيد، صفوان سامي: المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٥٢) سرجون الثاني: حكم هذا الملك مدة (١٦) سنة خلال الفترة (٧٢١-٧٠٥ ق.م) قضى معظمها في الحروب والفتوحات العسكرية، ومن أشهر ما قام به الملك سرجون الثاني هو بناؤه عاصمة جديدة للمملكة الأشورية والتي أطلق عليها اسم (دور- شروكين)، عن ذلك ينظر: علي، قاسم محمد: سرجون الأشوري (٧٢١-٧٠٥ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٣ .

(٥٣) إسماعيل، شعلان كامل: المصدر السابق، ص٦٧ ؛ للإطلاع على النص بالكامل ينظر:

Parpola, S.: The correspondence of sargon II, SAA, Vol.I , Helsinki, 1987, P.XVI.

Aspects from the Freedom in Mesopotamia

Dr. Yasir Hashim Huseen Ali- Dept. of Civilization- college of Archaeology – University of Mosul*

Abstract

The research focused on studying some aspects of freedom in Mesopotamia, and gave us an idea about the ancient Iraqis ability to explain their point of view in different manner of expressions and their opinions about the rulers and kings policies that got the benefit and welfare to them. This gives an evidence of course scope that was achieved by the ancient Iraqis society in the thought range at that time.

Henceforth, The religious freedom had occupied an important space in Mesopotamian society since the worship practice and ritual performance were the most important matters to the people. However, the belief selection of ancient Iraqis were pulling out from their freedom will without any kind of forcing and compulsion, and our evidence on this fact is the multi-deities for them.

On the other hand, the freedom of speech had a special character in some of the Sumerian and the Akadian texts especially among the officers and the rulers in one hand, or among the rulers themselves through their writings in the other hand. Thus, it's obvious through the text phrases which indicate that there were some of officers and rulers who under their kings' control had advised the kings through their views according to the desire on the public interest. Moreover, those kings were accepting these views as they aim at the king service. However, the freedom of language was one of the most unit reason to the ancient Iraqis especially in some of historical stages, and it is obvious in spreading of Aramaic language in the last of the 1st thousand century B.C., that was a great influence in using it as a speech and recording language beside the Akadian language.